٢٠ عاماً من الوحدة الألمانية

بقلم :

د. نادر رياض

www.naderriad.com

تمر الذكرى العشرون من الوحدة الألمانية ولا نستطيع أن ننسى هذا المشهد عند بوابة براندنبورج عندما نقلت وسائل الإعلام مشهد الآلاف من أبناء الشعب الالمانى شرقه وغربه يحتضنون بعضهم البعض والفرحة تضحكهم وتبكيهم فى ذات الوقت ابتهاجاً بسقوط حائط برلين. يومها رأى العالم مدى القوة التى يمكن أن تنطلق من إرادة الجماهير حين تحركها شجاعة الإنسان؟ وكيف أن حنينه وشوقه إلى الحرية قادر على تحقيق ما يدخل فى نطاق المستحيل.

وها نحن مدعوون بعد مرور عشرين عاماً من الوحدة الألمانية فى تأمل الماضى واستقراء المستقبل دون أن نقع أسرى لجمود الواقع أو رتابة الأحداث.. فمن عجب أن نرى أن وثيقة الوحدة الألمانية كانت هى ذاتها شهادة ميلاد للوحدة الأوروبية وأن أحدهما أدى بلا منازع للوصول للآخر.

أما ما هو أعجب من ذلك فهو أن شهادة ميلاد الاتحاد الاوروبى كانت ذاتها شهادة وفاة للاتحاد السوفيتى، وهو الأمر الذى فتح الباب على مصراعيه للتوسع فى الوحدة الأوروبية لتضم فى وضعها الحالى ٢٧ دولة أوروبية تمتد من غرب أوروبا إلى شرقها والعدد آخذ فى الزيادة دون تفرقة أو انحياز للغرب دون الشرق وهو أمر له بعده الملموس فى استقرار السلام العالمى وتعميقه وإزالة آثار الحرب العالمية الثانية سواء الساخن منها أو البارد، وبذلك تطوى صفحة هامة بعد الستين سنة من انفصال المشرق الاوروبى عن مغربه وما حواه ذلك من ترقب وتربص كاد يصل فى بعض مراحله للمواجهات العسكرية، وبذا أصبح الاقتصاد والتنمية هما العنصر الحاكم للعقلية الأوروبية متربعاً على عرش الأولوية الأولى دون منازع.

أما مشهدنا اليوم بعد انقضاء ستين عاماً من هذه الأحداث فإنه تحقيق لوحدة مستقرة الطوية تضم ٢٧ دولة متفاوتة فى قوتها الاقتصادية إلا أنها تشترك جميعاً فى الرغبة فى المشاركة فى إنشاء أوروبا القوية القادرة على التواجد كقوة اقتصادية ثالثة على أرض الواقع فى عالم تسوده الأنواء الاقتصادية والأخطار المحدقة من كل جانب.. أما جميلة الجميلات برلين فها هى تستعيد ملامحها وتستكمل مرافقها لتفرض نفسها بقوة الواقع عاصمة لأوروبا الموحدة على المدى المتوسط أو البعيد، فلها اليوم أكبر وأجمل محطة سكة حديد لا يضاهيها فى تفوق عماراتها وحداثة مرافقها أى محطة سكة حديد فى العالم، وعما قريب يكتمل مطار برلين ليصبح المطار الأكبر فى أوروبا، كما أن التوسع المستمر والتحديث المتكامل الرابط بين شرق وغرب برلين آخذ فى الاستكمال لتكتمل الصورة عما قريب بمقياس العشر سنوات القادمة لتتبوأ برلين مكانتها المنشودة.. ولا نستطيع أن نمر مرور الكرام على حركة العمار والإعمار والتطوير فى مجال السكك الحديدية ومترو الأنفاق والبنية الأساسية دون أن نذكر أحد الشخصيات المحورية فى هذا التطوير وهو المصرى الصعيدى الطباع والأصل المهندس هانى عازر ذلك الرجل الذى حاز ثقة قطاع الإنشاءات فى مجال السكك الحديدية ومترو الأنفاق وغيرها ليتبوأ دون منازع أعلى مراتب التقدير كالمهندس الأعلى شأناً فى التخطيط والإشراف على تنفيذ جميع المرافق المرتبطة بالسكك الحديدية.. ومترو الأنفاق ومحطة برلين، ربما يذكرنا بالمهندس حم يوتو بانى الهرم الأكبر كما لو كان هانى عازر ليس سوى امتداد للعبقرية المصرية عبر الزمان والمكان لتثبت ذاتها فى مجتمع الفرص المكافئة على الأرض الألمانية.

هذا الأمر يقودنا إلى العلاقات المصرية الألمانية المترسخة عبر الزمن كنموذج يحتذى به بمقياس النضج السياسى والوعى الاقتصادى والرؤية المستقبلية والاهتمام بأساسيات التنمية البشرية وبناء الإنسان.. فها نحن نذكر بالإعزاز والتقدير الدولة الصديقة ألمانيا الاتحادية والتى يمثلها المرحلة الحالية سفيرها الهمام لدى مصر الهر ميخائيل بوك والذى يحرص فى كل مناسبة أن يلقى كلمته بالعربية أمام الحضور من المصريين والذى يجيد معظمهم الألمانية إزالة للفوارق وانحيازاً للمصريين فى لغتهم ومنطقهم وكيف أن ألمانيا الصديقة قد بدأت منذ أكثر من مائة عام فى إنشاء مدارسها الثلاث بالقاهرة والإسكندرية لتوفر مستوى تعليميا راقيا لأبناء مصر وأبناء الجالية الألمانية دون ثمة تفرقة بينهما.. والأمر ليس يسيرا فى المحافظة على استمرارية هذه المدارس عبر قرن من الزمان تخللته سنوات عجاف فى العلاقات المصرية الألمانية أتت بها أنواء سياسية على غير رغبة من أطرافها قطعت فيها العلاقة بين البلدين دون أن تقطع أواصر الصداقة وقوة المنطق فظلت المدارس تؤدى خدماتها لأبناء مصر بتكلفتها المالية الباهظة تؤديها ألمانيا دون الالتفات لكبوة قطع العلاقات. أما حديثاً فقد توج هذا النشاط التعليمى بإنشاء الجامعة الألمانية بالمشاركة مع الحكومة الألمانية والحكومتين المحليتين لإقليم بادن فيرتنيرج وإقليم بافاريا وشراكة أكاديمية مع جامعتى شتوتجارت وجامعة أولم وما استتبع ذلك من مد جسور التدريب الصيفى لطلبة هذه الجامعة الألمانية فى مصر بفرص تدريبية بالمصانع والشركات الألمانية.

ولا نستطيع أن ننسى الفضل الذى شاركت به ألمانيا مصر فى نقل معبد أبو سمبل من موقعه السابق إلى موضعه الحالى.

ومن الوقائع التى نذكرها ونحن طلبة بكلية الهندسية حينما طرقنا أبواب معهد جوته لنتزود باللغة سعياً وراء فرص التدريب الصيفى بألمانيا أن تعداد مدينة القاهرة فى بداية الستينات كان ٥ ملايين مواطن بما يماثل تعداد مدينة باريس فى ذلك الوقت إلا أن الطلاب المصريين الدارسين للغة الألمانية بمعهد جوته وصل إلى عشرة أضعاف الدارسين الفرنسيين بمعاهد جوته فى باريس وهو مقياس جديد لقوة العلاقات المصرية الألمانية على مستوى الشباب والطلبة.

بقى أن نرسل تحية خالصة للشعب الالمانى الذى تمسك بقيمة العمل وأعلى من شأنه فأمسك بذلك بمفتاح النجاح فى الماضى والحاضر عابراً إلى المستقبل وهو تاريخ حافل يحتذى به ويضرب به المثل لكل من يسعى لتحقيق ذاته فالعمل والعمل الدءوب والعمل المجرد من كل شىء سوى الجودة هو الطريق الوحيد للنجاح المستقر والممتد.

وتحية للقيادة السياسية فى مصر وألمانيا التى ترعى العلاقات المصرية الألمانية بكل عزيمة وإخلاص متطلعة إلى ما فيه خير الدولتين عملاً بالمقولة الشائعة أن ما هو فى مصلحة مصر هو أيضاً فى مصلحة ألمانيا وعكس ذلك صحيح من أن المصلحة الألمانية تصب أيضاً فى المصلحة المصرية.